

هل الطبيعة كتاب؟ *المقالة الثانية: قطرة ماء.. قصة حياة*

مقدمة:

ربما لا يوجد شيء أكثر ألفةً في حياتنا من الماء. نفتح الصنبور فنراه يجري أمامنا، نشربه دون أن نفكر كثيرًا في وجوده، وقد تمر قطرة منه على أيدينا ثم تسقط في لحظات وكأنها لم تكن. نحن نعيش معه إلى درجة أن حضوره أصبح جزءًا من المشهد الذي لا نلتفت إليه.

لكن ماذا لو احتفظنا بقطرة واحدة فقط، وتوقفنا أمامها قليلاً؟

هذه القطرة الصغيرة التي لا تكاد تُرى إلا لمعةً عابرة، ليست شيئًا بسيطًا كما يبدو لنا. وراء وجودها رحلة طويلة بين السماء والأرض، وبين السحاب والتربة والبحار والكائنات الحية. قد تسقط مطرًا، ثم تتسرب إلى الأرض، أو تجري في مجرى مائي، أو تدخل جذور نخلة، قبل أن تعود مرة أخرى إلى دورة الماء.

والماء ليس مجرد شيء تحتاج إليه الحياة كي تستمر، بل هو جزء من بنيتها نفسها. وكلما اقتربنا من فهمه، اكتشفنا أن هذه المادة المألوفة تخفي وراء بساطتها شبكة واسعة من الخصائص والعلاقات.

وهنا يعود السؤال الذي بدأنا به في المقالة السابقة: إذا كانت الطبيعة كتابًا، فماذا يمكن أن نقرأ في قطرة ماء؟

ربما لا تقودنا القطرة إلى معرفة الماء وحده، بل إلى شيء أوسع: إلى الطريقة التي ينبغي أن ننظر بها إلى العالم.

قطرة لا تبقى في مكانها

حين ننظر إلى الماء في كأس، يبدو لنا ساكنًا، وكأن رحلته انتهت عند هذا الحد. لكن الماء في الطبيعة لا يعرف هذا السكون الذي نتخيله.

تسخنه الشمس فيتبخر، ويرتفع إلى الغلاف الجوي، ثم يتكاثف ويعود إلى الأرض مطراً. قد يجري فوق سطحها، وقد يتسرب إلى باطنها، وقد تمتصه النباتات، ثم يعود جزء منه إلى الجو من خلال النتح. وهكذا لا تكون القطرة شيئاً منفصلاً، بل لحظة من دورة أكبر منها بكثير.

حتى النخلة التي اعتادت عليها أعيننا في الأحساء والقطيف لا تستقبل الماء بوصفه نهاية الرحلة. تمتص جذورها، وينتقل داخلها، ويدخل في عملياتها الحيوية، ثم يعود جزء منه إلى الجو. الماء الذي يصل إلى النخلة يواصل رحلته من خلالها.

وهنا تظهر أولى المفارقات التي تمنحنا إياها القطرة: الشيء الذي يبدو منفرداً لا يمكن فهمه منفرداً.

فالقطرة لا تفسر نفسها بنفسها؛ تحتاج إلى السحاب الذي جاءت منه، والأرض التي استقبلتها، والنبات الذي امتصها، والحرارة التي غيرت حالتها، والقوانين التي حكمت حركتها.

ولعل هذا أول ما يمكن أن نقرأه في قطرة الماء: أن الطبيعة ليست مجموعة أشياء متناثرة، بل شبكة من العلاقات. فالشيء لا يُفهم دائماً بالنظر إليه وحده، وإنما بالنظر إلى ما يرتبط به.

لكن ما يجعل الماء قادراً على الدخول في كل هذه العلاقات هو ما يقودنا إلى طبقة أخرى من السؤال.

حين يكشف الماء عن سرّ الحياة

في صورته البسيطة، يتكون الماء من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، ومع ذلك تمنحه بنيته خصائص جعلته بالغ الأهمية للحياة.

فهو مذيب جيد لكثير من المواد، ولذلك تستطيع الكائنات الحية استخدامه في نقل المواد وإتمام العمليات الحيوية. وله قدرة عالية على امتصاص الحرارة، كما أن تجمده ينتج جليداً أقل كثافة من الماء السائل، فيطفو على السطح. والأهم من ذلك أن الماء لا يقف خارج الحياة لخدمها من بعيد؛ إنه يدخل في بنية الخلايا وفي عدد هائل من التفاعلات التي تجعل الحياة ممكنة.

العلم يشرح لنا هذه الخصائص، ويجب عن سؤال مهم: كيف يعمل الماء؟

لكن كلما اتسعت الإجابة، اتسع معها سؤال آخر: كيف أصبحت مادة بهذه البساطة الظاهرة جزءًا من البنية التي تقوم عليها الحياة؟

لا يلزم أن نحول هذه الحقيقة إلى إعجاز علمي كلما اكتشف العلم خاصية جديدة للماء. فهذا يحمل النصوص ما لا تحتل، ويربط معانيها بتفاصيل علمية قد تتغير مع الزمن.

المسألة أعمق من ذلك.

فالعالم حين يكشف لنا انتظام العالم لا يسلبه الدهشة، بل قد يعيدها إلينا. فالقطرة التي كانت مجرد سائل شفاف تصبح، بعد المعرفة، جزءًا من نظام من الخصائص والعلاقات والقوانين.

وهنا لا يعود السؤال عن الماء وحده، بل عن العالم الذي يجعل هذه العلاقات ممكنة، وعن العقل الذي يستطيع أن يكتشفها.

أن نعرف كيف يعمل الشيء شيء، وأن ندرك أن وجوده يدخل في شبكة من العلاقات شيء آخر.

وربما كانت هذه هي اللحظة التي تتحول فيها المعرفة من جمع للمعلومات إلى تأمل.

حين يصبح الماء سؤالًا

نحن لا نكتفي بأن نعرف أن الماء يتبخر ويتكاثف، أو أنه يدخل في الخلية، أو أن النبات ينقله من الجذور إلى الأوراق. بعد أن نفهم ذلك كله، يبقى العقل قادرًا على أن يسأل: ماذا يكشف لنا هذا عن العالم الذي نعيش فيه؟

هذه النقلة مهمة؛ لأن المعرفة لا تنتهي دائمًا عند الإجابة. أحيانًا تكون الإجابة الجيدة هي التي تجعل السؤال أعمق.

حين نعرف دورة الماء، نكتشف أن الطبيعة ليست مجموعة أشياء منفصلة، بل علاقات متبادلة. وحين نعرف خصائص الماء، ندرك أن ما يبدو بسيطًا قد يحمل وراءه بنية دقيقة. وحين نكتشف أن هذه القوانين قابلة للفهم، نواجه حقيقة أخرى: الإنسان لا يعيش داخل الطبيعة فقط، بل يستطيع أن يقرأها.

الماء لا يتكلم معنا، لكننا نستطيع أن نقرأ حركته. لا يشرح لنا نفسه، لكننا نستطيع أن نكتشف قوانينه. وهنا تتحول الطبيعة من مشهد نراه إلى كتاب نتأمله.

وهذا يعيدنا إلى السؤال الذي بدأنا به: ماذا نقرأ في قطرة ماء؟

نقرأ فيها حركة لا نراها كلها، وعلاقات لا تظهر للعين مباشرة، وقوانين يستطيع العقل أن يصل إليها من أثرها. لكننا نقرأ فيها أيضًا حدودنا؛ فالقطرة لا تكشف كل أسرارها دفعة واحدة، وكل معرفة جديدة تفتح وراءها سؤالًا جديدًا.

ولهذا لا تكون الدهشة نقيض العلم. أحيانًا يكون العلم هو الطريق الذي يعيد إلينا الدهشة بعد أن قتلها الألفة.

الماء في القرآن: من المادة إلى الحياة

حين نصل إلى القرآن، نجد الماء حاضرًا في مواضع كثيرة مرتبطة بالحياة والخلق والإنبات.

يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ﴿أَفَلَا يَدْعُونَ﴾.

اللافت أن الحديث عن الماء لا ينتهي عند وصف ظاهرة طبيعية، بل ينتقل مباشرة إلى سؤال الإنسان: ﴿أَفَلَا يَدْعُونَ﴾.

فالآية لا تقدم درسًا في الكيمياء الحيوية، ولا تحتاج إلى ذلك حتى تكون عميقة. إنها تلفت نظر الإنسان إلى حقيقة يشاهدها حوله، ثم تدعوه إلى أن يتجاوز المشاهدة إلى الاعتبار.

وفي موضع آخر يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ مَوْثِقًا﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

الماء هنا ليس مجرد مادة؛ إنه واسطة في صورة من صور الإحياء. والإنسان الذي عاش في واحة أو أرض زراعية يعرف أن الفرق بين أرض تنتظر وأرض تعطي قد يكون قطرة ماء.

هنا يمكن للعلم أن يثري التأمل في الآية دون أن يفرض نفسه عليها. العلم يشرح لنا كيف تتحرك المياه وكيف تعتمد الحياة عليها، بينما يترك لنا القرآن سؤالاً آخر: ماذا ينبغي أن نفهم نحن من هذه الحقيقة؟

حين نظر أهل البيت إلى الماء

وفي تراث أهل البيت عليهم السلام، يظهر الماء ضمن رؤية أوسع للخلق والتدبير.

في نهج البلاغة، يصف الإمام علي عليه السلام مشهداً من مشاهد الخلق بقوله: "فأجرى فيها ماءً متلاطمًا تياره، متراكمًا زخاره".

الماء هنا ليس تفصيلاً معزولاً، بل جزء من مشهد كوني متداخل. وهذا ينسجم مع الفكرة التي قادتنا إليها القطرة: الأشياء لا تقوم منفردة، وإنما تأخذ معناها داخل شبكة من العلاقات.

وتظهر هذه الفكرة بصورة عملية في روايات تتحدث عن تنظيم السقي وتقسيم الماء. فقد وردت روايات تتصل بقضاء رسول الله صلى الله عليه وآله في سيل وادي مهزور أن يُحبس الماء للأعلى إلى مقدار معين، ثم يُرسل إلى من هو أسفل منه.

قد يبدو ذلك حكمًا في مسألة زراعية قديمة، لكنه يحمل معنى يتجاوز تفاصيل السقي.

فالماء مورد مشترك، ووجوده وحده لا يكفي؛ لا بد من نظام يحدد كيف يصل، ومن ينتفع به، ومتى ينتقل إلى غيره.

وهنا يصبح الماء درسًا في الإنسان أيضًا.

فالمورد الذي يُحجز عند الأعلى قد يحرم الأسفل، والنعمة التي لا تُدار يعدل قد تتحول إلى سبب للنزاع. ومن ثم فإن علاقتنا بالطبيعة ليست منفصلة عن علاقتنا بالآخرين.

وهذا يعيدنا إلى السؤال الأول بطريقة مختلفة: إذا كانت القطرة جزءًا من شبكة في الطبيعة، فإن الإنسان نفسه جزء من شبكة من المسؤوليات.

ليست قيمة الأشياء في وجودها فقط، بل في العلاقة التي نقيمها معها .

الماء الذي علّم الإنسان

ولعل هذا المعنى أقرب إلينا مما نتصور.

في الأحساء والقطيف، لم يكن الماء شيئًا بعيدًا عن حياة الإنسان، بل كان مرتبطًا بالنخلة والأرض والزراعة والعيون والآبار وطرائق السقي. وكان التعامل معه يحتاج إلى معرفة بالمكان وحاجة الأرض ووقت السقي.

لم يكن الإنسان القديم يعرف كل ما نعرفه اليوم عن التبخر والنتح، لكنه كان يدرك بالملاحظة أن الماء لا يكفي أن يكون موجودًا؛ ينبغي أن يصل إلى موضعه المناسب، وبالقدر المناسب.

وهكذا لم يكن الماء موردًا يُستهلك فقط، بل كان مصدرًا للمعرفة أيضًا.

علّم الإنسان أن الموارد تحتاج إلى تدبير، وأن الحياة تقوم على العلاقات، وأن امتلاك النعمة لا يعني حسن استخدامها.

وربما كانت هذه واحدة من أجمل المفارقات في قصة الماء: نحن نطن أننا نستخدم الماء، بينما الماء نفسه كان من الأشياء التي علّمت الإنسان كيف يعيش.

قطرة واحدة تكفي

في بداية الرحلة كانت هناك قطرة.

بدت صغيرة، ساكنة، لا تحمل في طاهرها أكثر من صورتها الشفافة. ثم اكتشفنا أنها ليست ساكنة حقًا، وأنها جزء من دورة تمتد بين السماء والأرض. عرفنا أن خصائصها جعلتها عنصرًا أساسيًا في الحياة، وأن العقل يستطيع أن يقرأ في حركتها قوانين الطبيعة.

ثم قادتنا القطرة إلى القرآن، حيث يتحول الماء من مادة إلى علامة على الحياة، وإلى تراث أهل البيت عليهم السلام، حيث يظهر الماء ضمن مشهد الخلق، ثم ضمن سؤال النظام والعدل والمسؤولية.

لكن القطرة نفسها لم تتغير.

الذي تغير هو نظرتنا إليها.

وهنا ربما تكمن قيمة التأمل في الطبيعة. فنحن لا نعيش في عالم يخلو من الآيات، وإنما نعيش في عالم امتلأ بالأشياء المألوفة حتى كففنا عن النظر إليها.

المطر، والنخلة، والهواء، والضوء، والماء؛ كلها تمر أمام أعيننا كل يوم، وكأن الألفة حجبنا عن قدرتها على إثارة السؤال.

لكن الطبيعة لا تصبح أقل عجباً لأننا اعتدناها.

نحن فقط نتوقف عن النظر.

وربما لهذا تبدأ المعرفة أحياناً من فعل صغير جداً: أن تتوقف أمام شيء مألوف، وأن تنظر إليه كما لو أنك تراه للمرة الأولى.

قطرة ماء واحدة تكفي لكي تذكّرنا بأن وراء الأشياء الصغيرة عالمًا واسعًا، وأن العلم لا ينهي الدهشة، وأن السؤال قد يكون أحياناً أعمق من الإجابة.

وإذا كانت الطبيعة كتاباً، فربما لا تكون قيمته في كثرة ما نقرأ منه، بل في قدرته على أن يجعلنا نعيد النظر في ما طنناه أننا نعرفه.

قطرة واحدة كانت كافية لكي نرى الماء من جديد، وربما كان ذلك كافياً أيضاً لكي نرى العالم من حولنا بعين مختلفة.

لكن إذا كانت قطرة الماء قد علمتنا أن الأشياء التي تبدو صغيرة تخفي وراءها عالمًا واسعًا، فربما

يجدر بنا أن نسأل: ماذا عن الأشياء التي تبدو لنا هائلة وثابتة إلى درجة أننا لا نفكر فيها أصلاً؟

ماذا يخفي الشيء الذي يقف أمامنا منذ آلاف السنين، صامتاً لا يتحرك؟

هل يكون ما تراه أعيننا من سكونه هو الحقيقة كلها؟

ربما لا. وربما تكون الطبيعة قد خبأت سؤلاً لا آخر في مكان لا نتوقعه، حيث لا تجري قطرة، ولا يتحرك سحاب، بل يقف شيء هائل في وجه الزمن...

فماذا يمكن أن نقرأ هذه المرة؟